

ندوات تلفزيونية - قناة الشارقة - ندوات مختلفة - الحلقة (٢) : آيات الله في الإنسان.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-٠٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله لا يُحصى عطاءه ولا تُعدُّ نِعَمَاهُ، والشكر لله سبحانه وتعالى على ما تفضلَ علينا وأولاده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير نبيِّ اجْتَبَاهُ.
أيها الأخوة: السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته في هذا اللقاء نَقِفُ مع آيات الله سبحانه وتعالى في هذا الإنسان، في هذا المخلوق الذي سَخَّرَ لَهُ اللهُ سبحانه وتعالى كُلَّ شَيْءٍ وذلك لأنَّ قُدْرَةَ الخالق تتجلى في هذا الكون وفي هذا الإنسان إذا ربُّنا سبحانه وتعالى أمرنا أن ننظرَ في أحوالنا وأنفسنا:

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾

(سورة الذاريات)

فإننا أيها الأخوة المُشاهدون نقف مع هذا الإنسان لنستجلي ما فيه من أسرارٍ إلهية ونفحاتٍ ربانية وضيئنا في هذا اللقاء مع هذا الموضوع الشيق الأستاذ محمد راتب النابلسي الأستاذ المُحاضر في كلية التربية بجامعة دمشق إلى جانب كونه خطيباً وواعظاً ومُحدِّثاً ومُريباً له نشاطه الطيب في كُلِّ الميادين ونحن إذ نُعرِّفُ بأستاذنا الكريم بأنَّ كثيراً من الناس قد يجهلون معالم هذه الشخصيات الطيبة التي تعملُ بصمتٍ وهدوءٍ تبتغي وجه ربها في تربية الأجيال في عطائها كيف لا وهو نَفْحَةٌ طيبة من جدِّه العالمِ الربانيِّ والعالمِ الذي تركَ من المخطوطات التي يعيش عليها الكثير الكثير من أهل العلم والفضل في فهم عميق وعطاءٍ قد لا يُعادلُه عطاء إلا من كان بهذا المستوى من أميال العلماء الربانيين الشيخ عبد الغني النابلسي رَجَمَهُ اللهُ تعالى ورجمَ اللهُ الأئمة الأعلى فأهلاً وسهلاً بأستاذنا وضيئنا الكريم الأستاذ محمد راتب النابلسي

المدبوع:

لعلِّي إذا سمحتُم قبلَ أن نبدأ وقد ذكرنا نحنُ موضوعَ الإنسان فرُبُّنا سبحانه وتعالى ذكرَ الإنسان جملةً وتفصيلاً والله يقول:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾

(سورة التين)

جاءَ هنا ذِكْرُ الإنسانِ مُجملاً ثمَّ وقَفَ على التفصيل في بعض الأمور منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾

(سورة البلد)

إلى جانب آيات كثيرة وردَ فيها ذِكْرُ الإنسان، فلعلكم إن شاء الله إذا سمحتم أن نتحدَّثَ عن الإنسان أولاً لِمَ خصَّه بالذكر في هذا ولم خصَّه كذلك أن ينظرَ في نفسه ونفسه أقرب إليه من كُلِّ شَيْءٍ إلا

الله أقرب إلينا حتى من حبل الوريد كما وردَ في سورة ق، فلو تفضلتم بالتعريف أو بالوقوف عند هذه النقطة دُتمت مشكورين.

الأستاذ راتب:

إن شاء الله، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، الإنسان هو المخلوق الأول لقوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

(سورة الأحزاب)

والإنسان هو المخلوق المكرم لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧٠)

(سورة الإسراء)

والإنسان هو المخلوق المكلف قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦)

(سورة الذاريات)

والتكليف طاعة تسبقها معرفة، ومعرفة الله يمكن أن نتخذ وسيلة لها جسم الإنسان الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، جسمه الذي يتحرك به أقرب آية دالة على عظمة الله جل جلاله، ففي أي جانب من جوانب هذا الجسم لو نظّر الإنسان نظر المتأمل لخصّص إلى نتائج مذهلة إن الله سبحانه وتعالى خلقه في أحسن تقويم، والحديث عن جسم الإنسان وعن فحوى هذه الآية الكريمة يطول كثيراً ولكن أخذ القليل خير من ترك الكثير.

من هذه الأجهزة الرائعة المدهشة التي أودعها الله في الإنسان جهاز اسمه جهاز المناعة المكتسب هذا الجهاز يُسميه بعض الأطباء: جهاز الشفاء الذاتي، هذا الجهاز يتميز بأنه يتألف من عناصر تزيد عن بضعة عشرات من الملايين تتضاعف في زمن الشدة إلى أضعاف مضاعفة عناصر هذا الجهاز تُصنع في نقي العظام إنها الكريات البيضاء وتعدّ إعداداً قتالياً في غدة اسمها: غدة التيوس، الشيء العجيب أنّ هذا الجهاز يُشبه أن يكون جيشاً في أعلى مستوى فله قيادة حكيمة وله عناصر موزعة دقيقة جداً فمن مهمات هذا الجهاز أنّ بعض عناصره مختصة بالذهاب إلى الجرثوم الذي يُداهم هذا الجسم مهمتها الوحيدة أن تتفحص شفرتها الكيماوية وتعود بها إلى مراكز اللنف لتسلمها إلى عناصر أخرى مهمتها إعداد السلاح الفتاك لهذا الجرثوم.

العناصر الثانية: العناصر المُصنّعة، الأولى اسمها العناصر المُستطلّعة، الخلايا المُصنّعة تفكّ شفرة هذا الجرثوم وتصنع مصلاً مضاداً لهذا الجرثوم وتنتهي مهمتها وتأتي مهمة خلايا أخرى كريات بيضاء أخرى مهمتها قتالية تحمل هذا السلاح الفتاك وتطلق به إلى العدو وتقاتله حتى

تقضي عليه وعندئذٍ تنتهي مهمتها وتأتي مهمة سلاح الخدمات إن صحَّ التعبير، عناصر من الكريات البيضاء تنطلق إلى ساحة المعركة لِتَنْظَفَ ما عليها من جُثث القتلى.

الشيء الدقيق جداً: أنَّ هذا الجهاز يتمتّع بذاكرة عجيبة، مدهشة.. لولا هذه الذاكرة لَمَا كَانَ للتلقيح من معنى إطلاقاً فأَيُّ جرثومٍ داهمٍ الإنسان وصنَعَ لَهُ مصلّاً مُضادَّ يُحفظُ تركيبُ هذا المصلِّ في ذاكرة هذا الجهاز ولو عادَ هذا الجرثوم بعدَ خمسين عاماً فإنَّ ذاكرةَ هذا الجهاز تُعيدُ صنَع المصلِّ المُضاد وتفتكُ بالجرثوم.

شيئٌ يُلفتُ النظرَ أَنَّهُ أَكْثِيفَ في آخر السبعينات أنَّ في هذا الجهاز فرقةً تميّز عن بقية الفرق بأنَّ لها قدرةً على كشفِ انحرافِ الخليّة قبلَ أن تتحرف.. يُمكن أن تُسمي هذه الفرقة فرقة المغاوير.. إنها تستطيع أن تكشفَ انحرافِ الخليّة في نموها غير الطبيعي قبلَ أن يبدأ انحرافها وتقضي عليها، أمّا الشيء الذي لا يُصدّق هو أنَّ هذا الجهاز يأتُمِر من جهةٍ خارجِ الجسم.. إنها الله...، جهاز الدوران مركزه القلب، الجهاز العصبي مركزه الدماغ، جهازُ إفراز الفضلات مركزه الكليتان، أمّا هذا الجهاز ليسَ لَهُ مركزٌ قياديّ داخلَ الجسم إنَّ مركزه خارجَ الجسم ينلقى منه التوجيهات والأوامر والتطويرات، الشيء الذي يُعينُ على فهمِ حقيقةَ هذا الجهاز هو أنَّ الحُب والرضا والثقة والاطمئنان تُقوي هذا الجهاز، والخوف والقلق والحقد والتوتر والشدة النفسية تُضعفُ هذا الجهاز.

الآن: يتبيّن أنَّ المؤمن الموحّد الذي وَكَل أمره إلى الله وجعلَ الهمومَ همماً واحداً وَعَمِلَ لوجه واحد وكفاهُ الله الهمومَ كُلّها إنَّ هذا الشعور بأنَّ الإنسانَ لله وهو قائمٌ بالله وأمره إلى الله وما عليه إلا أن يُطيعه.. هذا الشعور يبعثُ في النفسِ الطمأنينة وهذا الشعور وهذه الطمأنينة تُقوي عملَ هذا الجهاز.. إذا: التوحيدُ صحّةٌ بالمعنى الدقيق، قال تعالى:

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣) ﴾

(سورة الشعراء)

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ

وَيَبْسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾

(سورة آل عمران)

فالشركُ من نتائجِ الخوف والقلق والتوتر والشدة النفسية وهذا الخوف والقلق والتوتر يؤديان إلى إضعافِ هذا الجهاز، ومرضُ العصرِ اليوم هو مرضُ الإيدز، الإنسان حينما ينحرفُ عن منهج الله ينحرفُ عن حُكم الله وينحرفُ عن مبادئِ فطرته يتعطلُّ هذا الجهاز وهذا الفيروس فيروس الإيدز هو أضعفُ فيروسٍ على الإطلاق يتحدّى كُلَّ قوى البشر الآن، في بعض البلاد المتقدمة تقدماً صناعياً فحسب يموتُ في كُلِّ عشر ثوانٍ إنسانٌ بمرضِ الإيدز " لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم " فإذا خرجَ عن منهج الله " ثمَّ رددناه أسفلَ سافلين "

المنيع:

شكرَ الله لضيفنا الكريم على هذه اللفتة الطيبة في الإنسان " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " جهاز

المناعة واحد من أحد الأجهزة التي قد لا يعلمها إلا من كان صاحب اختصاص وظهر هذا الأمر بعد أن ابتلى الله سبحانه وتعالى البشرية حيث تحدت الإله في معاصيها، في فسوقها، في فجورها.. فرئنا إبتلاها بعد ذلك بهذا الجهاز الذي لم تبقى له الوظيفة الأساس التي من أجلها خلقه وأودعه في هذا الإنسان يتلقى عن الله، ولفنة أخرى من ضيفنا الكريم التوجه إلى الله وحده هو الحل الوحيد لهذه البشرية التي باتت تُعاني ما لا نستطيع له حصرًا في هذه الدقائق المحدودة ولكن لعلّي أتذكر وأذكر قولَ الله تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

(سورة الزمر)

فإذاً لا يستوي من كانت توجهاته وحده دون سواه ومن كان متوجهاً إلى غير الله فوكله الله إلى نفسه، الأستاذ محمد راتب بعد أن تعرّفنا إلى هذا الجهاز في الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم ولكن رددناه أسفل سافلين بكسب يده لأنه أراد هكذا.. ما أراد أن يتوجه إلى الله فكانت الانتكاسة التي تُعاني منها البشرية اليوم هي ليست إنتكاسةً مادّية أو اقتصادية بقدر ما هي انتكاسة والعيادُ بالله جاهلية حيث التوجه لا إلى صنم كما كان في الجاهلية بل التوجه إلى غير الله وثقةً بغير الله ولهذا نعود مرةً أخرى إلى الإنسان، أنا ذكرتُ في ابتداء اللقاء بأنّ الله ذكر الإنسان جملةً وأخذتم أنتم جانباً من هذه الجوانب في الإنسان ولكن أريد أن نقف على جانب آخر خصّه الله تعالى بالذكر من بين الأعضاء طيب ذكر الرجل في مكان وذكر اليد في مكان ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر الإنسان بعينه ولسانه وشفتيه فقال " ألم نجعل له عينين ولساناً وشفنتين وهديناها النجدين " فما الحكمة من ذكر العين أولاً ثمّ عقّب بعد ذلك باللسان والشفنتين ثمّ ربطهما بعد ذلك بالهداية، فلو أننا وقفنا على جانب العين دُمت مشكورين.

الأستاذ راتب:

العين التي خلقها الله جلّ جلاله ولفنت نظرنا إليها هي آية من أكبر الآيات الدالة على عظمتها، هذه العين ترى الأشياء بحجمها الحقيقي وبألوانها الدقيقة، إن العين البشرية السليمة تستطيع أن تُميّز بين لونين من بين ثمانمئة ألف لونٍ مدرجٍ أمامها أي: لو درجنا اللون الأخضر مثلاً إلى ثمانمئة ألف درجة.. العين البشرية تستطيع أن تُدرك الفرق بين درجتين من هذه الدرجات، فيها دقة ما بعدها دقة، هذه العين تتم فيها عملية من أبداع العمليات.. إنها عملية المطابقة.. فالجسم البللوري الذي هو العدسة مرن، والشبكية التي فيها مئة وثلاثون مليون عَصِيّة ومخروط والتي تستقبل الخيال الذي يأتيها من العدسة هذه الشبكية بعدها عن العدسة ثابت فكيف السبيل إلى أن نرى الأشياء رؤيةً دقيقةً مع أنها تتبدل في مواقعها عن العين، هناك عضلاتٌ هُدبِيّةٌ بالغة الدقة تضغط على العدسة ضغطاً بالميكرونات بحيث يبقى خيالُ الأشياء المرئية على شبكية العين وهذه العملية يعجز عن أن يفعلها أكبر علماء الضوء إن العين تقوم بهذه العملية المُعقّدة بشكلٍ مُذهِلٍ وعجيب، قال تعالى " ألم نجعل

له عينين "، في ماء العين لو أنّ إنساناً ذهبَ إلى بلدٍ في شمال الكرة الأرضية حيث تصل الحرارة في الشتاء إلى ثمانية وستين درجة تحت الصفر، الإنسان بإمكانه أن يُعطي كُلَّ جسمه إلا أنّ العين لا يستطيع أن يُعطيها لأنه يرى بها لذلك لو أنّ العين لامست الهواء الخارجي بهذه الدرجة المنخفضة تجمد ماء العين وفقد الإنسان البصر، لذلك ربنا جلّ جلاله أودع في ماء العين مادةً مُضادةً للتجمد، فالعينُ نرى بها آيات الله جلّ جلاله:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾

(سورة يونس)

ربنا عز وجل بدأ بالعين لأنها أداة رؤية الأشياء التي حولنا والأشياء التي حولنا نصبها الله لتكون آيات باهرات دالة على عظمته جلّ جلاله.. هذه نقطة..

النقطة الثانية: أنّ العين حينما نرى بها آيات الله وحينما نُعَضُّ الطرفَ عن ما حرم الله، ربنا عز وجل يُريدنا أن نستخدم هذه العين التي هي من نعم الله الكبرى وفق منهج الله فلو خرج الإنسان في استخدام عينه عن منهج الله جلّ جلاله يتوعده ويُعدُّ له تأديباً يردّه إليه.

المنبع:

سبحانه من إله عظيم، لكن مع العلم أيضاً إذا سمحت لي الأستاذ محمد راتب هذا من الناحية الفيزيولوجية هذا التركيب العجيب الذي ركبهُ الله سبحانه وتعالى ورتب هذا الجهاز حيث ذكرتم نبذة مختصرة فيما يتسع له المقام ولكن تُريد أن تنتقل بالعين أيضاً إلى حكمة أخرى فربنا سبحانه وتعالى جعل هذه النوافذ لتنعكس بعد ذلك منقولاتها على قلب الإنسان إما أن يكون هذا المنقول خيراً أو غير ذلك ولهذا لما قال سبحانه:

﴿ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾

(سورة النور)

فربطها بالعقل:

﴿ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾

(سورة النور ٣١)

ربطها بالعين، فإذا هناك حكمة أخرى فحبذا قبل أن تنتقل إلى اللسان والشفتين لِنُدَكِّرَ بالجانب التربوي الهام الذي يترتب على الرؤيا.. على النظر.. والعين هي الأداة في هذا.. لو تفضلتم.

الأستاذ راتب:

.. يعني.. ممكن أن نعبد الله من خلال العين هناك عبادة إيجابية أمرنا أن ننظر في ملكوت السماوات والأرض وهي نافذة للعقل، العقل جهازٌ من أعقد ما في الكون دام في الإنسان.. العقل أعقد جهاز في الكون أودعه الله في الإنسان ولكن هذا العقل له نوافذ.. أحد أكبر نوافذه هي العين،

بالعين نرى آيات الله، بالعين نرى الأحداث التي أمامنا، يُمكن أن نستنبط العبر مما يجري حولنا من خلال رؤيتنا:

" أمرت أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة " فالعين أداة حاسة مهمة جداً نعبُد الله من خلالها حينما نستخدمها وفق منهج الله في النظر في ملكوت السماوات والأرض " قل إنظروا ماذا في السماوات والأرض " وحينما نردعها عن نظرة عاصية نرقى إلى الله فكأن الشهوة التي أودعها الله فينا نرقى بها مرتين: مرة حينما نطبق أمر الله عز وجل، ومرة حينما نكفها عن معصية الله عز وجل.. هي سلم نرقى بها مرتين قال تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم "، وقع تحت يدي كتاب الإنسان ذلك المجهول (أليكسي كريكز) يقول: إن خير نظام للبشرية أن يقصر الرجل طرفه على زوجته، هذا كشفه بالتجربة وبالملاحظات، أما هذا منهج إلهي، مدرسة غض البصر السعادة الزوجية أساسها غض البصر السعادة الزوجية أساسها الانصراف الكامل إلى الزوجة، أما حينما يتفلسف الإنسان من منهج الله ويطلق بصره هنا وهناك وبمأ عينيه من الحرام يفقد أتمن شيء في حياته.. ألا وهي السعادة الزوجية.. فالعين لها دور خطير في إيمان الإنسان، تتلقى العين آيات الله الدالة على عظمته ويرقى الإنسان بها حينما يضبطها وفق منهج الله عز وجل.

المدبغ:

هذه اللفتة الطيبة فيما يتعلق بالعين مرة أخرى أقول ما تفضلتم به بأن الإنسان غير المنضبط الذي يسرح نظره في الحرام.. أذكر من مقولة العلماء.. قالوا " إن النظر إلى الحرام يضعف المتعة في الإنسان لأنه كالذي يأكل أنواعاً من الطعام من هنا وهناك فيؤدي بعد ذلك إلى مرض التخمة في المعدة" كذلك أيضاً العين لا يحس بها الإنسان إلا بعد فترة عندما هذه المتعة التي يسعى إليها ويلهث وراءها تخفو يوماً بعد يوم وفي وقت مبكر لأنه سرح نظره فيما حرم الله تعالى فلو أنه وقف مع الحلال لاستمر الحلال أيضاً في نفسه ومع أهله إلى أن يقدر الله سبحانه وتعالى له هذه المدة الزمنية التي يعيشها في هذا الكون فإله عظيم.. والعين فيها كثير وكثير من الأسرار مهما وقفنا عندها ونعود فنقول " في أنفسكم أفلا تبصرون "

الأستاذ راتب:

هناك طبع الإنسان يميل إلى إطلاق البصر والتكليف يأمره أن يعرض البصر، هذا التناقض الذي يبدو من طبع الإنسان الذي يميل إلى إطلاق البصر والتكليف الإلهي الذي يأمره بغض البصر هو ثمن الجنة، هو سبب رقي الإنسان، ما سمي التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كلفة، لولا هذا التناقض بين طبع الإنسان الذي يميل إلى أن يمتنع نظره بكل جميل حتى ولو كان محرماً يأتي التكليف ليجعل له قناة نظيفة يسري خلالها ويحرم عليه القنوات القذرة، فالإنسان يرقى حينما ياتمر بما أمر وبينتهي عما عنه نهى وزجر..

" ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء ولكن الولي هو الذي تجده عند الأمر والنهي " أن يجدك حيث أمرك وأن يفتدك حيث نهاك.

المدبغ:

حقاً هذا هو الولي كما تفضلتم وإن كانت فكرة عابرة لكنها ذات أهمية في منهج المرين، ذلك هو الولي الذي يتجه نحو الله، أن يجديك حيث أمرك وأن يفقدك حيث نهاك.. تلك هي البداية.. لذلك أيها الأخوة المشاهدون " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " لا لكي فقط نقرأ أو نصلى إلى أن الله موجود من خلال هذه فنحن نؤمن بالإله بالفطرة ولكن لنقرأ على صفحات هذا الكون وفي أيضاً على صفحات أنفسنا آيات الله وقدرته تعالى التي ليس فوقها قدرة فسبحانه من إله عظيم شتان بين من أسلم قيادته لخالقه ومولاه وبين من أسلم قيادته لنفسه وحظه وشهوته وهواه.

المدبغ:

نعود مرة أخرى الأستاذ محمد راتب للإنسان نحن ذكرنا في الآية الكريمة " ألم نجعل له عينين ولساناً وشفنتين " طيب بعد العينين ذكر اللسان وذكر الشفتين أيضاً لحكم، فلو أننا إستجدنا إن شاء الله ما نستطيع من حكمة الله سبحانه وتعالى ولم خص اللسان والشفنتين في الذكر في هذا المقام...؟! لو تفضلتم.

الأستاذ راتب:

كما سلكت في السؤال الأول أبدأ ببعض الملاحظات حول الشفتين واللسان، واللسان له وظائف متعددة من أهمها النطق وله وظائف أخرى لكن هل نصدق أن كل حرف نطق به تسهم في صنعه سبعة عشرة عضلة، فنحن حينما نلقي خطبة أو نلقي كلمة أو نجري حديثاً كم حركة من حركات العضلات تتحرك لتولف هذه الحروف والتي تولف الكلمات والجمل والتراكيب وما إلى ذلك. شياً آخر: العلماء يذكرون " أن في الإنسان منعكساً اسمه منعكس المص " هذا المنعكس لولاه لما وجدت على الأرض إنساناً واحداً، الطفل حينما يلد دونما يعلمه أحد يضع شفتيه على ثدي أمه ويحكم إغلاق الشفتين على حلمة الثدي ويسحب الهواء.. من علمه ذلك...؟! علمه ربنا:

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) ﴾

(سورة طه)

فكان العين تستقبل بها الآيات الكونية وأنت مكلف أن تذكر الله بلسانك.. يعني..

﴿ فَادْكُرُونِي أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢) ﴾

(سورة البقرة)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾

(سورة الأحزاب)

فالأمر ينصب لا على الذكر بل على كثرة الذكر " فاذكروا الله ذكراً كثيراً " فكأنك بالعين تتلقى الآيات والعبر وباللسان تتطق بما علمت مُذكراً وواعظاً، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾

(سورة الرحمن)

البيان من أخصّ خصائص الإنسان، أداة إتصال رائعة بين أفراد النوع، اللغة.. أرقى إتصال النوع عن طريق اللغة، فأنت بالُّغة تُعبّر عن مشاعرك، تُعبّر عن أفكارك، أنت بالُّغة تطلّع على أفكار الآخرين وعلى مشاعرهم وعلى حاجاتهم، لذلك اللُّغة لها أربعة جوانب يُمكن أن تُقَيّ كلام ويُمكن أن تستمع إلى كلام أمّا حينما تُريدُ من لُغة أن تنقلُ ثراثَ أمةٍ من جيلٍ إلى جيلٍ أو من أمةٍ إلى أمةٍ تأتي الكتابة، يُمكن أن تُعبّر عن أفكارك بالقلم ويُمكن أن تقرأ ما كُتِبَ بالقلم، فثراث البشرية ينتقل من أمةٍ إلى أمةٍ ومن أجيالٍ إلى أجيالٍ عن طريق اللغة المقرونة وهذا من فضلِ الله علينا.

المدّيع:

لكن الأستاذ محمد راتب لا يُريد أن نقف فقط عند الجوانب الفيزيولوجية والحديث عنها طبعاً حديثٌ ذو شجون يدفع بالإنسان دائماً أن يتفكّر ويتعرّف، يتعرّف ثمّ يتفكّر، يتعرّف على قدرة الصانع، هل هذا الأمر ياترى جاء عشوائياً أم جاء صدفةً لأنّ الإنسان إذا أراد أن يقوم على صنّع ما يشابه اللسان بظاهره لا بمخبره ومحتواه عندها يبذلُ جهداً كبيراً حتى يُقلّل هذا العضو وهو تقليدٌ سطحيّ، ولكن الأهمُّ من هذا التركيب الفيزيولوجي الدقيق الذي ركبهُ الله تعالى في هذا الجهاز " ألم نجعل له عينين ولساناً وشفيتين " اللسان والشفتان كونهما أداة تُنطق أداة تعبير عمّا في جنان الإنسان كما قال الشاعر، ولكن لهما وظيفتان هامتان خطيرتان في حياة البشر كما تفضلتم ينظر ثمّ يذكر ويذكر الله ذكراً كثيراً وليس الذكر فقط هو يوجرُ على ذكر اللسان ولكن هناك منهجٌ تربويّ ارتبط بهذين العضوين باللسان والشفتين، حبذا لو ألقينا الضوء على الجانب التربوي الخطير معلومكم وردّ أحاديثٌ كثيرة منها حديثٌ معاذ رضي الله عنه:

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ..... ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرُوعِهِ سَنَامِهِ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرُوعُهُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَقُلْتُ لَهُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ تَكَلَّمْ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وَجُوهِهِمْ فِي النَّارِ أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

المدّيع:

إذاً حبذا لو وقفنا إن شاء الله وألقينا الضوء بهذه المناسبة على هذا الجانب التربوي الهام، ولعلّ أكبر المصائب بين الناس تأتي من هذا اللسان ومن تلك الشفتين فلو تفضلتم ولو من باب التذكير لعلّ إن شاء الله الذكري تنفع المؤمنين.

الأستاذ راتب:

الإمام الغزالي في إحيائه عقده باباً موسعاً حول آفات اللسان وذكر آفات كثيرة جداً: الغيبة والنميمة والإفك والسخرية وما إلى ذلك، الحديث الصحيح:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))
 ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بِأَسَا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

السيدة عائشة رضي الله عنها قالت عن أختها إنها قصيرة،

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ مَا يَسْرُنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةً وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا كَأَنَّهَا تَعْنِي فَصِيْرَةٌ فَقَالَ لَقَدْ مَرَجْتَ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَرَجْتَ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُرَجَّ))

فالإنسان يرقى إلى أعلى عليين بضبط لسانه وذكره لله عز وجل، ويهوي إلى أسفل سافلين حينما يتفكّر لسانه ويرتكب أكثر المعاصي، بل إن علماء العقيدة عدّوا أنّ هناك كفراً اعتقاديّاً وأنّ هناك كفراً عمليّاً وأنّ هناك كفراً قولياً فالإنسان يكفر إذا نطق ببعض الكلمات فاللسان جهازٌ خطيرٌ جداً " أونواخذ بما نقول قال ويحك يا معاذ وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " قضية الكلام.. يعني.. المسلم ألف أو ظن أنّ المعاصي هي القتل وشرب الخمر والزنى مع أنّ هناك آلاف المعاصي يرتكبها الإنسان في حياته اليومية.. في بيته، في عمله، في الطريق، في الزهة، حينما يسخر، حينما يغتاب، حينما يئم، حينما يقلّد، حينما يُحاكي..... هناك معاصي لا تنتهي فلذلك الإسلام ضبط الذات، إذا استطاعت الحضارة الغربية أن تُسخر الطبيعة على حدّ تعبيرها لأغراضها فالإسلام تكمّن عظمته في أنّ الإنسان المسلم إنضبط إنضباط ذاتي ومن أجلّ أنواع الانضباط ضبط اللسان، فكم من أسرة تشرّدت من كلمة جافية، كم من شركة فسخت من كلمة قاسية، كم من فتنة نشبت من كلمة غير صحيحة فضبط اللسان أحد أكبر خصائص المؤمن وتفكّنت اللسان هو الذي يفعلهُ المتفكّتون.. يعني.. الإنسان بين حالين إمّا أن يكون منضبطاً موصولاً بالله مُسعداً للخلق وإمّا أن يكون متفكّناً مقطوعاً عن الله مُسيناً للخلق.

الذبيح:

شكراً لكم لكن أيضاً بعد هذه اللفتة التربوية الطيبة والتي نذكرُ بها المسلمين عامّة والإنسانية كذلك الأمر لتتعرّف على منهج الله سبحانه وتعالى الذي أراد منا أن نكبج جماح النفس ونقف بهذه الأعضاء التي خلقها الله سبحانه وتعالى لتؤدي وظيفة ربانية في الإصلاح، في فعل الخير، في كلمة الحق، لا أن توظّف من أجل كما تفضلتم السخرية، الغيبة، النميمة... لأنّ الله هو الذي أودعها، لأنها أمانة والله سائلنا عن هذه الأمانة التي استودعها عندنا ومن ثمّ لعلّ لفتة أخرى في الإنسان، ربنا ذكر سبحانه وتعالى مثل هذه التي وقفنا عندها بالعين واللسان والشفقتين كذلك لفت نظرنا إلى دقائق أخرى فالإنسان فيه أجهزة كثيرة كثيرة تعمل بدءاً من الخلية.. من الخلية.. تعمل هذه الخلية عملاً عجبياً ومنها يتركّب هذا الإنسان إنتظمت الخلايا فهذه أخذت وظيفة العين وهذه وظيفة السمع... وهكذا، ولكن لفت نظرنا إلى أمرٍ آخر اكتشف في عصور متأخرة قال سبحانه وتعالى:

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسْوِي بَنَانَهُ (٤) ﴾

(سورة القيامة)

فلفتةٌ أخرى.. فلو أننا لفتنا النظر إلى حكمة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الجانب ولم خصَّ البَنَانَ هُنَا بالذكر لو تفضلُّتم.

الأستاذ راتب:

لعلَّ لكرامة الإنسان عند الله أنَّ الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسانَ الفردية.. الفردية من صفات الله جلَّ جلاله وكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض هذه الفردية، فالإنسان يتميز له هويَّة خاصة، قبل أن نصل إلى البَنَانَ أَقْفُ قليلاً عند بعض خصائصه التي ينفردُ بها، فزحية العين: ليس في الأرض كُلهَا إنسانٌ آخر يُشبهُ الإنسانَ الأولَ بفُرحية العين، الآن هناك أفعال لا تُفتح إلا على فُرحية العين لا يستطيع فتحها إلا إنسانٌ واحد، الإنسان له رائحةٌ جلدٍ يتميزُ بها وهذا عمل الكلاب البوليسية.. أي إنسان ينفردُ عن بقية البشر جميعاً برائحة جلدٍ خاصة، والإنسان أيضاً له تركيبٌ دمويٌّ خاص.. بلازما الدم.. والإنسان أيضاً له نبرة صوتٍ خاصة، نبرة صوتِهِ، ورائحةٌ جلدِهِ، وتركيبُ دمِهِ، واكتشف العلماء الآن أنَّ هناك زُمر نسيجية يكادُ الإنسانُ ينفردُ بزمرة واحدة ليس هناك إنسانٌ آخر يُشبهُ الأولَ بزُمرته النسيجية، ربُّنا جلَّ جلاله أشارَ إلى شيءٍ بينَ أيدينا هي بَنَانُ الإنسان.. بصمةُ اليد.. وضعوا بصمةً وكبروها بمساحة متر وعرضوا عليها مئة ألف بصمة لم يجدوا بصمة تُشابهُ هذه البصمة، هذه البصمة يا سيدي فيها علامات قدرها العلماء بمئة علامة إذا تشابهت سبعُ إشاراتٍ بينَ البصمتين تكونُ البصمتان لإنسانٍ واحد، لا نجد ولا سبع خصائص متوافقة بينَ بصمتين، فالإنسانُ بصمتهُ هويتهُ، وفُرحيةُ عينِهِ هويتهُ، ورائحةُ جلدِهِ هويتهُ، وتركيبُ دمِهِ هويتهُ، ونبرةُ صوتِهِ هويتهُ، وشيئٌ آخر: وحدتهُ النسيجية أيضاً هويتهُ..... في بعض بلاد الغرب هكذا قرأت أن بعض المجرمين نزعوا جلدَ الإبهام ووضعوا جلدًا من مكانٍ آخر بعدَ عدَّة أشهر ظهرت خصائصُ البصمة الأولى ثانية، فالإنسان له صفة الفردية وكرامة الإنسان عند الله أعطاه صفة الفردية وصفة الإبداع وصفة الإرادة وصفة الخلق:

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ

أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

(سورة المؤمنون)

﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾

(سورة الأنعام)

ربُّنا عزَّ وجلَّ سمحَ لِذاتِهِ العلية أن يوازنَ بينَ ذاته وبينَ مخلوقاته فقال " وهو أَسْرَعُ الحاسبين " ومعلومكم أنَّ الحاسوب اليوم في البلاد المتطورة يقرأ أربعمئة وخمسون مليون حرف في الثانية " وهو أَسْرَعُ الحاسبين " .. يعني انتهى الوقت..

المذيع: ننتقلُ إلى نقطةٍ أخرى ونحنُ طبعاً لا نستقصي في هذه العجالة من اللقاء لكن إنما نُريد أن نُذكِّر مرةً أخرى لأننا نتعامل مع منهجٍ رباني حتى يقرأ الإنسان على صفحة نفسه بأنَّ الإله هو

الخالق وماذا ينبغي على المخلوق تجاه خالقه...؟.. ينبغي عليه أن يشكر وأن يلتزمه وأن ينتظم.. هكذا عرفنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما ينبغي أن نتعرف إليه حتى نشكر المنعم لا عن تقليد بل عن دراية لا عن تقليد وعماية وضلالة بل عن معرفة وعلم وهداية.. هكذا عرفنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على الله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تلك وظيفتهم وأما الذين إنحرفوا عن منهج الله فقد ضلوا السبيل وأصبحوا والعياد بالله في ضلالة عمياء من أمرهم، فطبعاً وقفنا عند هذه النقاط التي ورد ذكرها تخصيصاً في القرآن، لكن لو إنتقلنا إلى العقل والقلب العقل جهازٌ.. كما أشرتم في أثناء حديثكم.. جهازٌ لا يُعَدِّلُهُ جهازٌ، تركيبٌ رباني ولعل الذين ابتدعوا وإخترعوا هذا الجهاز المعروف اليوم بالحاسوب فلعلهم أيضاً استفادوا من هذه القدرة الإلهية العجيبة التي أودعها في هذا الإنسان وفي العقل بالذات، لكن هناك العقل وهناك القلب فحبذا لو وقفنا أيضاً بالنسبة للمفهومين ولو باختصار، هل العقل هو القلب أو القلب هو العقل...؟.. مع أن النصوص التي وردت تخص تارة العقل بالذكر وتارة تخص القلب بالذكر، فهل هما يأتريان لفظان لمدلول واحد، أم هما مختلفان باختلاف اللفظ...؟.. وطبعاً الجانب التربوي نقف بعد اللفتة هذه إن شاء الله لأهمية العقل والقلب في حياة الإنسان.

الأستاذ راتب:

الدماغ أولاً ينطوي على مئة وأربعين مليار خلية إستنادية لم تُعرف وظيفتها بعد، أما قشرة الدماغ فيه أربعة عشرة مليار خلية يقوم بوظائف لا تُصدّق، منطقة الذاكرة بالدماغ لا يزيد حجمها عن حبة العدس تحتوي سبعين مليار صورة، منطقة المحاكمة والتذكّر والتخيّل والإستدلال والإستنباط.. العقل شيء.. يعني أبلغ كلمة فيه عاجز عن فهم ذاته، أنا أتصور العقل جهاز إستشاري كآلة حاسبة تضعها في جيبك تستعين بها لكن مركز العقل هو القلب لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

(سورة الأعراف)

يُمكن أن يستنبط الدماغ الفكر البشري أو العقل كما يفهمه البعض.. يعني.. نحن لا نُريد أن نكون في خلاف المُصطلحات، في رأس الإنسان دماغ سمه فكراً، سمه عقلاً، جهاز إستشاري ينظر ويستنبط و يستدل ويتصور ويتخيّل ويُحاكم ويحفظ..... إلى آخره، فهذه الأعمال العقلية أو الفكرية أعمال بأعلى درجة من التعقيد، هذا الجهاز الذي أودعه الله فينا له مبادئ ثلاث (مبدأ السببية، ومبدأ الغائية ومبدأ عدم التناقض) والكون مخلوق وفق هذه المبادئ فلولاً هذا التوافق بين العقل وبين الكون لما كان للعقل من معنى ولما كانت لآيات التي بثها في الآفاق من معنى، فأنت بعقلك لا تفهم شيئاً بلا سبب ونظام الكون أساسه السببية، وأنت بعقلك لا تفهم شيئاً بلا غاية وأساس الكون مبدأ الغائية، وأنت بعقلك لا تُصدّق أن يكون الإنسان في هذا المكان وفي مكان آخر في وقت واحد.. يرفض ذلك.. فأروع ما في القضية ذلك التوافق بين مبادئ العقل ومبادئ الكون، إن سميت

هذا الذي في الدماغ فكراً أو إن سميتُه عقلاً... المؤدى واحد... هو جهاز إستشاري وضعه الله في خدمتنا، لو أن إنسان باع بيته بعملة أجنبية وفي جيبه جهاز لكشف زيف العملة من صحيحها ولم يستخدم هذا الجهاز وكانت العملة مزورة ألا يندم أشد الندم...؟.. لأنه معه الجهاز ولم يستخدمه، ماذا يقول أهل النار وهم في النار:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾

(سورة الملك)

إذا: أزمة العلم فقط.. فلو أن الإنسان عرّف الحقيقة لإتبعها إنطلاقاً من فطرته ومن حرصه على حبه لوجوده وسلامة وجوده وكمال وجوده وغاية وجوده، فالإنسان يسعى إلى سلامته وإلى سعادته ولكنه قد يضل الطريق وهذا العقل أو ذلك الفكر الذي أودعه الله في الإنسان جهاز إستشاري، ولكن هذه الحقائق إذا تراكمت في الفكر إنتقلت إلى قلب الإنسان.. القلب الذي ذكره الله في القرآن هو قلب النفس.. " لهم قلوب لا يعقلون بها " أستعير مصطلحات الكمبيوتر مرة واحدة: في الكمبيوتر ذاكرة وفيه HARD، المعلومات في الـ HARD تُخزن ميكانيكياً لا تُمحي بقطع الكهرباء بينما المعلومات في الذاكرة تُخزن كهربائياً فإذا قُطعت الكهرباء إنمحت المعلومات، فالإنسان حينما يموت ويفنى دماغه تنعدم كل المعرفة التي حصّله عن طريق الدماغ، أما حينما يموت عقله معه الشيء الذي عقله في حياته وإنتقل من ذاكرته إلى قلبه هذا الشيء الذي بين يديه وهو الذي سيحاسب عنه. المذيع: الحقيقة أيضاً مع القلب، فالآيات القرآنية حيث ذكرتم فرئنا قال:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ﴾

(سورة الفرقان)

طيب هؤلاء بظاهر الحال لهم عقول، وبظاهر الحال تراهم يُقدّمون للبشرية ما فيه الخير وما فيه الدمار، إستطاعت هذه العقول بما أودع الله فيها من أسرار أن يُسخرّوها ونحن نعيش الآن أمام هذا الجهاز اللاقط الذي ينقل حديثنا عبر الأثير إلى العالم ومن ثمّ الفضاء سبّروا أغواره ووضعوا الرجال على بعض الكواكب كالقمر وهناك محاولات جادة... فإذا التقنيات الموجودة بين أيدي الناس غنيّة عن التعريف، فإذا لهم عقول فكيف نفى الله تعالى عنهم صفة العقل مع أنهم أصحاب عقول.. لو تكرّمت..

الأستاذ راتب:

مرّ النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فرأوا في الطريق رجلاً مجنوناً فسأل النبي وهو الحكيم المرّي سألهم سؤال العارف: من هذا...؟.. قالوا هذا مجنون، قال.. لا.. المجنون من عصى الله، يُمكن أن تُفرّق بين الذكاء والعقل وكلّ إنسان تفوّق في اختصاصه وأدرك جزئيات اختصاصه وعرّف أدقّ الدقائق في اختصاصه وبرّع في اختصاصه حتى صار عالماً في اختصاصه فهو ذكي، أما إذا عرّف الله، وعرّف سرّ وجوده، وغاية وجوده، وعرّف منهج ربه، وعرّف طريق سعادته، وعرّف علّة خلقه... هذا هو العاقل، فكلّ عاقل ذكي لكن ما كلّ ذكي عاقل... كلّ عاقل ذكي لكن ما كلّ ذكي

بعقل... هناك أقطاب في العلم يصنعون الأسلحة المدمرة، الأسلحة الجرثومية والأسلحة الكيماوية، هناك أناس يستخدمون عقولهم لإفناء البشرية.. هؤلاء أشرار، هؤلاء أبالسة، فالعقل جهاز خطير إلا أنني أضيف إلى ذلك أن العين البشرية لو أنها في أعلى درجة من الدقة لا قيمة لها من دون نور يتوسط بينها وبين المرئي، كذلك العقل البشري لا قيمة له من دون وحي يهديه سواء السبيل، فالعقل البشري رائع إذا إستعان بالوحي، وحينما يبتعد عن الوحي يضل ويضل، ينحرف ويحرف، فالعقل جعله الله جهازاً رائعاً لمعرفة النقل إن صحَّ التعبير ولفهم النقل أيضاً، فهو يتكامل مع النقل والدين في الأصل النقل والعقل لفهم النقل.

الذبيح:

الأستاذ محمد راتب الحقيقة الحديث عن الإنسان إنما نحن نقف قطوف شجرات للتذكير ولكن لعلَّ الوقت قبل أن نُنهي حديثنا وأوشك أن ينتهي لكن أريد أن أقف معكم على جانب تربوي هام جداً في الإنسان، فربنا سبحانه وتعالى ألهم النبي المصطفى أن يتحدث لأنه لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، فعندما قال:

((**عَنْ مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِي يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تَدْرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ قَالَ تَدْرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ مَنْ أَمِنَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ فَاجْتَنَبَهُ))**

هذه في الواقع إرتبطت بالحواس.. طبعاً لا نريد أن نقف أيضاً على الجانب الفيزيولوجي لما فيه من أسرار يعلمها أصحاب الاختصاص، وجنابكم أقيّم الضوء على جانب من هذه الأمور لكن الجانب التربوي الهام الذي ينبغي أن يتحكم بها الإنسان لأنَّ الإنسان.. طبعاً لا أريد أن أخوض الآن قضية الجبر والاختيار في الإنسان.. لكن الكثير الكثير من الناس يفهمون الإنسان هو أداة أو ريشة في مهبِّ الرياح مع أنَّ النصوص خلاف ذلك، مع أنَّ النصوص جاءت لتكلف بأمر من الله سبحانه وتعالى ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهنا الارتباط بين العقل، بين موضوع الإرادة وبين السيطرة على هذه الأعضاء، هل هو أمرٌ يا ترى صحيح فيه فكره والجبر أم هو إرادي مكلف الإنسان به لأنَّ هذه أيضاً تتعلق بهذا الإنسان وما أودع الله فيه من أسرار وبحكمة خلقه هذا الإنسان الذي لم يخلقه عبثاً إنما خلقه لحكمة.. فلو تفضلتم.

الأستاذ راتب:

جئني برجلٍ شاربٍ خمرٍ لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال والله يا أمير المؤمنين إنَّ الله قدَّر عليَّ ذلك، فقال أقيموا عليه الحدَّ مرتين: مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افتري على الله، قال ويحك يا هذا إنَّ قضاء الله لم يُخرجك من الاختيار إلى الاضطرار:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾

(سورة الأنعام)

سيدي: حينما نُلغي الاختيار، نُلغي التكليف، ونُلغي الأمانة، ونُلغي الثواب، ونُلغي العقاب، ونُلغي الجنة، ونُلغي النار، ونجعل إرسال الأنبياء عبثاً وإنزال الكتب لعباً، حينما يُصبح الكون تمثيليةً سَمجة، إنَّ الله أمر عباده تخبيراً، ونهاهم تحذيراً، وكلفَ يسيراً، ولم يكلفَ عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، لو أنَّ الله أجبر عباده على الطاعة لَبطلَ الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لَبطلَ العقاب، ولو تركهم هملاً لكانَ عجزاً في القدرة.

سيدي: مُجردُ الأمرِ والنهيِّ يقتضي الاختيار، لو أننا أنشأنا حائطين المسافة بينهما عرضُ جسم إنسانٍ بالضبط.. يعني.. يسيرُ بينهما وكتفه اليميني تلامس الحائطَ الأيمن، وكتفه اليسرى تلامس الحائطَ الأيسر وقلنا لهذا الإنسان سر على اليمين.. هل لهذا الأمر من معنى..؟.. هل يُعقل أن يكونَ في القرآن أمرٌ لا معنى له..؟.. القرآنُ كُلُّهُ أمرٌ ونهيٌّ، لو أنَّ الإنسانَ مُسيرٌ لا معنى لهذا الأمر والنهي، وحينما يُعزى الإضلالُ إلى الله قال العلماء " هذا هو الإضلالُ الجزائيُّ المبني على ضلالٍ اختياري " يُؤكدُهُ قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾

(سورة الصف)

الاختيار .. الآية الكريمة:

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾

(سورة البقرة)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣) ﴾

(سورة الإنسان)

الآياتُ كثرةٌ جداً والأحاديثُ كثيرةٌ جداً...

﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾

(سورة البقرة)

الفعلُ فعلُ الله ولكنَّ الانبعاثَ إلى الفعلِ من اختيارِ الإنسان، ولولا هذا الجانبُ الاختياريُّ لما كانَ من معنى لكلِّ الأديانِ ولكلِّ الرسالاتِ ولكلِّ الأنبياء... كُلُّهُ يتلاشى، فحينما نُنكرُ الاختيارَ نُنكرُ الدينَ وما من عقيدةٍ أخطرُ في حياة المسلم من عقيدة الجبر، حينما نجعلُهُ ريشةً في مهبِّ الريح..

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالماءِ.. الإنسان سيُحاسب..، ما معنى أن يُحاسبَ الإنسان وقد خَلَقَهُ اللهُ كَافِراً وَقَدَّرَ عَلَيْهِ الكُفْرَ..؟.. هذا شيء لا يليقُ بكمالِ اللهِ عزَّ وجلَّ.. فهذا شيءٌ دقيقٌ جداً..

المنذع:

مرةً أخرى الأستاذ محمد راتب مع منهج الله: هذا الإنسان الذي خَلَقَهُ على أحسنِ سِمةٍ وأحسنِ صورةٍ كما ذكرنا في الآية التي ابتدأنا بها " لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ " بكسبِ هذا الإنسان، وما أرى البشريَّةَ حيثُ الآنَ نقرأُ على صفحةِ هذا الوجودِ هذا الكون، ونقرأُ على صفحةِ الكُرَّةِ الأرضيَّةِ ذلكَ العيبِ وذلكَ الخللِ سببُهُ بُعدُ الإنسانِ عن اللهِ، سببُهُ أنَّ الإنسانَ لم يُدركِ الأسرارَ التي أودعها اللهُ فيه ولهذا كما قالَ شاعرُنَا:

وتترعُمُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ وفيكَ إنطوى العالمُ الأكبرُ

الحقيقةُ أيها الأخوة، أيها المسلمون، أيها الإنسان، أينما كُنْتَ وحيثُ ما كُنْتَ أنظرَ في نفسك ترى اللهُ، أنظرَ فيما حولكَ ترى اللهُ في قُدْرَتِهِ سبحانهُ وتعالى في عجائبِ صنْعِهِ، فما عليكِ أيها الأخ، أيها الإنسان إلا أن تستقيمَ مع منهجِ اللهِ مع الذي ربَّكَ، أنتَ تُعطي لِمَن أعطاكِ تُعطيهِ الولاءَ ولِمَن مَنَّ عليكِ بالخيرِ والمعروفِ تدينُ لَهُ أيضاً بالولاءِ فكيفَ بالذي أعطى الذي أعطاكِ..؟.. فكيفَ بالإلهِ الذي هداكَ وربَّكَ..؟.. ألا يستحقُّ أن تشكُرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى في نفسك، في عينِكَ، في سمعِكَ، في بصرِكَ، في لسانِكَ، في رجلِكَ، في يديكَ.

نعم.. هذا هو المنهج الذي عرَّفنا أن نستقيمَ مع شرعِ اللهِ حتى نلقى من اللهِ الجزاءَ الأوفى في يومٍ لا ينفَعُ فيه مالٌ ولا بنون، والكلامُ كثيرٌ ولكن ما في هذه العبارات وما في هذه العجالةِ فيها الخيرُ الكثيرُ إن شاء اللهُ تعالى حيثُ تفضَّلَ ضيفنا الكريم الأستاذ محمد راتب النابلسي و حيثُ تفضَّلَ وأعطانا الكثيرَ بعباراتٍ موجزةٍ كما علَّمنا النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلَّم الذي أوتِيَ جوامِعَ الكَلِمِ ولا يسعُنِي إلا أن أشكُرَهُ على هذا العطاء وأن أدعوَ اللهُ تعالى أن ينفَعَ بِهِ وأن ينفَعنا بما علَّمنا، أسألُ اللهُ سبحانهُ أن يجمعنا على الخيرِ أستودعُ اللهُ دينكم وأماناتكم وخواتيمَ أعمالكم.

والحمد لله رب العالمين